من أخبار المسافرين (٢٦)

قاضي واسط يتأوّه

أبوالفضائل علي بن أبي المظفر يوسف بن أحمد الآمدي من بيت معروف بالصلاح والرواية ـ وكان ممن كثرت أسفارهم وتعدّدت رحلاتهم ـ قدم إلى بغداد وأقام بها وتفقّه على مذهب الشافعي وسمع الحديث من جماعة كبيرة ببغداد وتولى القضاء بواسط في عام ٦٠٤هـ. هذا المسافر له أشعار رائعة أطربتني أبيات قرأتها له وهَزَّتْ نفسي وملكتْ مشاعري، فأحببت أن أتحف بها إخواني المسافرين علَّها أن تروقهم وأن تطرد عنهم السآمة والتعب من طول السفر. يقول:

واهاً لـه ذكَـرَ الحمـى فتـأوّهـا ... ودَعـا بـه داعـي الصبـا فتـوَلَّهـا
هاجتْ بَلابلَه البلابلُ فانثنت ... أشجانُهُ تَثني عن الحلم النهى
فشكا جوى وبكى أسى وتنبّه الـ ... ـوجد القديم ولم يزل متنبهاً
قالوا وهَىٰ جَلَداً ولو علق الهوى ... بيلملـم يـومـاً تـأوَّه أو وهَـى
لا تُكْرِهوهُ على السلوِّ فطائعاً ... حمَل الغرامَ فكيف يسلو مكرها
يا عُتبُ لا عَتبٌ عليكِ فسامحي ... وصِلي فقد بلغ السقام المنتهى
عَلَّمْتِ بانَ الجزعِ مَيْلَ غصونه ... لما خطرتِ عليه في حُلَل البها
ومنحت غُنجَ اللحظ غزلانَ النقا ... فلذاك أحسن ما يُرى عينُ المَها
لولا دلالكِ لم أبتْ متقسِّمَ الـ ... ـعَزَماتِ مسلوبَ الرقاد متيها
لي أربع شهداء في صدق الولا ... دَمْـعٌ وحـزنٌ مفـرطٌ وتـدلّهـا
وبـلابـلٌ تعتـادنـي لـو أنهـا ... في يَذْبل يوماً لأصبح كالسُّها
لام العواذل في هَواكِ فما ارعوى ... ونهاهُ عنكِ اللائمون وما انتهى
قالوا اشتهاكِ وقد رآكِ مليحةً ... عجبـاً وأيُّ مليحـةٍ لا تُشْتهـى
أنا أعشَقُ العشاقِ فيكِ ولا أرى ... مثلي ولا لكِ في الملاحة مشبها

من أخبار المسافرين (٢٧)

ابن محلّم الخزاعي

هذا هو أبوالمِنهال عوف بن محلِّم الخزاعي، أحد الأدباء والرواة العُصماء، والشعراء الفصحاء، وكان أحد وزراء المأمون، وقد اختصّه طاهر بن الحسين لمنادمِته ومسامرته، وكان لا يخرج في سفرٍ إلاَّ أخرجه معه وجعله زميله وأنيسه، فلما مات طاهر بن الحسين قرّبه عبدالله بن طاهر من نَفْسِه، وأنزله منزلته من أبيه، وكان ابن محلِّم يتطلَّف عبدالله بن طاهر للرجوع إلى أهله والعودة إلى وطنه، فقد اشتد شوقه إليهم وزاد حنينه إليهم، فلم يوافق له أبداً وفي مرةٍ من المرات وهما في سفرٍ من بغداد إلى خراسان، فلما اقتربا من الرَّيّ، سمع عبدالله صوت طائرٍ يغرِّد بأحسن تغريد، فأعجب عبدالله بصوته، والتفت إلى عوفِ ابن مُحَلِّم فقال له: يا ابن محلم، هل سمعت قطُّ أشجى من هذا الصوت وأطرب منه؟ فقال: لا والله أيُّها الأمير، وإنه لحسن الصوت، شجيُّ النغمة، مطربُ التغريد، ثم قال: قاتل الله أباكبيرٍ حيث يقولُ:

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر ... وغصنك ميادٌ ففيم تنوحُ
أفِقْ لا تَنُحْ مِنْ غيرِ شيء فإنني ... بكيتُ زماناً والفُؤادُ صحيحُ
وَلوعاً فشطَّتْ غُرْبةً دارُ زينبٍ ... فهأنا أبكي والفؤادُ قريحُ

فقال عوفٌ: أحسن والله أبوكبير ـ إنه كان في الهذليِّين مائةٌ وثلاثون شاعراً ما فيهم إلاَّ مُفْلِقٌ، وما كان فيهم مثلُ أبي كبيرٍ فإنه كان يبدعُ في شعره، ويُفْهَم آخر قوله وأوَّلُهُ، وما شيءٌ أبلغ في الشعر من الإبداع فيه.

قال عبدالله: أقسمت عليك إلاَّ أجَزْتَ شعرَ أبي كبيرٍ؟ قال عوفٌ: أصلحَ الله الأمير، قد كبر سنِّي، وفنيَ ذهني، وأنكرتُ كُلَّ ما كنتُ أعرفُهُ. قال عبدالله: سألتُك بالله، فلما سمع عوفٌ ذلك أنشأ يقولُ:

أفي كلِّ يوم غربةٌ ونزوحُ أما للنوى من أوبة فتروحُ؟
لقد طَلَّحَ البينُ المشِتُّ ركائبي فهل أَرَيَنَّ البينَ وَهوَ طليح
وأرّقني بالرَّي نوحُ حمامةٍ فنحت وذو الشجو القديم ينوحُ
على أنها ناحت فلم تَذْرِ دمعةً ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامه فيحُ
عسى جود عبدالله أن يبكي النوى فتضحي عصا الأسفار وهي طريح

فلما سمع عبدالله هذه الأبيات أذن له من ساعته بالرجوع ووصله بعشرة آلاف درهم ورده إلى منزله.

وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا

أناسٌ أحبُّوا السفر في المفاوز والصحاري بدلاً من النعمة التي كانوا فيها على السير في القرى المتواصلة الغنية بالأشجار والثمار والمياه. وهذا من خذلان الله لهم والعياذ بالله، فإن المرء إذا بطر النعمة وكفر خالقها، وتنكر لمسْديها، بدَّل الله عليه النعمة نقمة، وأبدله بدل الأمن خوفاً، وبدل الرخاء شدة، وبدل الراحة عناءً، وهؤلاء قوم سبأ عبرةٌ للمعتبرين، وعظة للمتعظين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]

كانوا في رغدٍ من العيش عظيم، وفي رزق من الله كريم، ثمار وأشجار.. عيون وآبار.. أمن وأمان، هدوءٌ واطمئنان. فأرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويتنعموا بنعمه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فاستجابوا لذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أُمروا به، وتنكَّروا لما دعوا إليه، فعوقبوا بإرسال السيل عليهم والتفرق في البلاد شذر مذر ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧]

ولم يكتف أهل سبأ بما حصل لهم من النقمة والخذلان، بل دعوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم فحدث لهم ذلك ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٨-١٩]

ونترككم الآن مع العلامة ابن كثير رحمه الله ليفسِّر لنا هذه الآيات:

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقيل هي قرى بصنعاء ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي واضحة يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي كان أمنهم دائماً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز وصحاري يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف. كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وقال هؤلاء: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمَراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والأُلفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا حتى صاروا مضربَ المثل، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ.. وهكذا فقد تفرقوا.. فمنهم من خرج إلى عُمان، وخرجت غسّان إلى بصرى، وخرجت الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل، فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً

فأقاموا فيه فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عمان. ثم أرسل الله تعالى على السد فهدمه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات.

قال الأعشى أعشى بني قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس:

وفي ذاك لِلمؤتسي أسوةٌ ومأرب قَفَّى عليها العرِمْ
رجـامٌ بَنَتْـهُ لهـم حميـرٌ إذا جـاء مـاؤُهُـم لـم يـرمْ
فأروى الزروع وأعنا بَها على سعةٍ ماؤهم إذ قُسمْ
فصاروا أياديَ ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِمْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ أي إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبّار على المصائب، شكور على النعم. وفي الصحيح: «**عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاءً إلاَّ كان خيراً له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن**». كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

[سورة يس]